

إشكالية تجنيس الرسائل في التراث العربي بين التصنيف الأدبي والتداخل النوعي

The Problematics of Classifying Epistolary Texts in the Arab Literary Heritage Between Literary Taxonomy and Generic Intersections

د/ رابح هاشم * (1)

ملحقة قصر الشلالة جامعة ابن خلدون تيارت، (الجزائر)

البريد الإلكتروني: rabah.hachem@univ-tiaret.dz

تاريخ النشر: 2025/12/26	تاريخ القبول: 2025/12/16	تاريخ الإرسال: 2025/10/13
-------------------------	--------------------------	---------------------------

الملخص:

يتناول هذا البحث إشكالية تجنيس الرسائل في التراث العربي، من خلال تحليل طبيعتها النوعية ووظائفها البلاغية والمعرفية. ويبين أن الرسالة ليست مجرد خطاب وظيفي، بل نص هجين يجمع بين الأدب والفكر، ويتقاطع مع أجناس نثرية أخرى مثل الخطبة، والمقالة، والمناظرة، والوصية. مشيراً إلى أن الرسالة غالباً ما كانت تُوظف كقناع بلاغي يسمح بتجاوز الرقابة والتعبير الحر. كما يناقش المقال حدود مصطلح "الأدبية" في وصف الرسائل، ويقترح رؤية مرنة ترى في الرسالة فضاء مفتوحاً تتقاطع فيه التعبيرية والحجاجية والتأليفية، مما يمنحها مكانة مركزية في خريطة النثر العربي القديم.

الكلمات المفتاحية: الرسائل الأدبية، التداخل الأجناسي، الأدب والفكر، البلاغة العربية، المقام التواصلية، الرسالة والخطبة.

Abstract:

This study explores the problem of genre classification of epistles in the Arabic literary heritage, by analyzing their generic nature and their rhetorical and cognitive functions. It demonstrates that the epistle is not merely a functional form of discourse, but rather a hybrid text that combines literature and thought, intersecting with other prose genres such as the sermon, the essay, the debate, and the testament. The study also highlights that the epistle often served as a rhetorical mask enabling the writer to transcend censorship and express ideas freely. Moreover, the article examines the limits of the term literariness in describing epistles and proposes a flexible vision that conceives the epistle as an open space where expressiveness, argumentation, and composition intersect, thus granting it a central place in the map of classical Arabic prose.

Keywords: Epistolary Writing, Generic Overlap, Literature and Thought, Arabic Rhetoric, Communicative Context, Letter and Oration.

مقدمة

تُعَدُّ الرسائل من أبرز النصوص النثرية في التراث العربي، غير أنها لم تحظَ بالاهتمام النقدي الكافي على الرغم من مكانتها التاريخية والأدبية. فقد شهد فنُّ الرسائل تطوُّراً ملحوظاً منذ العهد النبوي، مروراً بالعصرين الأموي والعباسي، وصولاً إلى العصور الحديثة، حيث تباينت وظائفها وأشكالها بتباين السياقات الثقافية والاجتماعية.

وتتميّز الرسائل في التراث العربي بتنوّع بنياتها وتعدّد أغراضها بين الرسمي والسياسي والاجتماعي والديني والأدبي، فضلاً عن تداخلها مع أنماط تعبيرية ومعرفية أخرى، كالخطبة، والمقالة، والوصية، والسيرة الذاتية. وهذا التنوّع يثير إشكالات تصنيفية مهمّة تتعلّق بموقع الرسائل ضمن خارطة الأجناس الأدبية العربية.

وانطلاقاً من ذلك، يطرح هذا البحث إشكالية مركزية مفادها:

- هل يمكن النظر إلى الرسائل في التراث العربي بوصفها جنساً أدبياً قائماً بذاته له سماته وخصوصياته؟ أم أنها مجرد خطاب وظيفي/تواصلي متحوّل يتداخل مع أجناس أخرى ويستمد منها ملامحه؟

أهداف الدراسة:

- الكشف عن الخصائص الفنية والموضوعية التي تميّز الرسائل الأدبية عن غيرها من الأجناس النثرية.
- تحليل التداخل النصي بين الرسائل وأجناس أخرى.
- مناقشة إشكالية تصنيف الرسائل ضمن نظرية الأجناس الأدبية في التراث العربي.
- إبراز القيمة الأدبية والفكرية للرسائل في سياقها التاريخي والثقافي.

منهجية الدراسة:

تعتمد هذه الدراسة على مقارنة وصفية-تحليلية تنطلق من رصد النماذج المختلفة للرسائل في التراث العربي، سواء ذات الطابع الأدبي، أو السياسي، أو الاجتماعي، أو الديني، ثم تحليل بنياتها الأسلوبية والموضوعية للكشف عن خصائصها المميزة. كما تستعين الدراسة بالمنهج المقارن لمقاربة تداخل الرسائل مع أنماط نثرية أخرى كالخطبة إضافةً إلى توظيف بعض مفاهيم نظرية الأجناس الأدبية الحديثة من أجل مساءلة موقع الرسائل في خارطة النصية العربية.

أهمية الدراسة:

تكمن أهمية هذه الدراسة في إعادة الاعتبار إلى فنّ الرسائل باعتباره أحد الأجناس النثرية التي عكست تطور الفكر العربي وأسهمت في تشكيل الذائقة الأدبية، كما تتيح هذه الدراسة فرصة لفهم أعمق للعلاقات النصية بين الأجناس الأدبية في التراث العربي.

1- مفهوم الرسالة الأدبية:

ينحدر لفظ "رسالة" من الجذر اللغوي "ر س ل"، وقد ورد في كتب اللغة أن هذه المادة تفيد معاني التتابع، والتؤدة والانطلاق والتواصل. كما تحمل دلالات تشير إلى الإرسال في نسق جماعي، أو التوجيه الرصين للكلام، كأن يُقال: "ترسل في قراءته"، أي تأتّى وتروى¹. ومع مرور الزمن، تطوّر مدلول اللفظ من دلالاته الحسية الأولى إلى دلالات معنوية ترتبط بالمخاطبة والمراسلة عن بعد، حيث غدا يشير إلى كل قول أو كتاب يُبعث إلى شخص ما.

وقد أوضح ابن منظور أن "الإرسال" يحمل معنى التوجيه، وأن "الرسالة" أو "الرسالة" تفيدان هذا المعنى ذاته، وهو ما أكدته المعاجم اللغوية حين بيّنت هذا التحول في المدلول من المجال الحسي إلى المعنوي، حيث باتت الرسالة تُشير إلى كل كلام يُوجّه من طرف إلى آخر بقصد التواصل².

ويُفصّل صاحب "كشاف اصطلاحات الفنون" في تعريفه للرسالة بقوله: إنها أصلاً "كلام يُرسل إلى الغير"، ثم خُصّت في اصطلاح العلماء بما يتضمن قواعد علمية، ويضيف أن الفرق بين الرسالة والكتاب لا يعود إلى طبيعة المحتوى بقدر ما يتصل بمستوى الكمال أو النقصان، من حيث الطول أو الشمول³.

أما على الصعيد الاصطلاحي، أصبحت الرسالة فناً من فنون النثر الفني الذي لم يُعرف عند العرب في العصر الجاهلي، بل ظهر مع بدايات التدوين، لا سيما في القرن الثاني والثالث الهجريين، حيث أبدع كتاب مثل الجاحظ هذا النمط من الكتابة الذي يجمع بين التواصل والتأمل.

ومن المهم الإشارة إلى أن النثر الفني العربي القديم لم يحظ بالعناية التي نالها الشعر، خصوصاً في العصر الجاهلي. وقد نبّه إلى هذه المسألة الدكتور زكي مبارك حين صرّح بأن النقاد القدماء لم يُولوا النثر اهتماماً مماثلاً لما أُعطي للشعر، قائلاً: "إن النقاد لم يعطوا للنثر ما أعطوا للشعر من العناية... فالنثر مهما احتقل أصحابه بإتقانه وتجوّده لم ينل من أنفس النقاد منزلة الشعر"⁴.

ويعلل ذلك بعدة عوامل، من بينها ندرة التدوين وشيوع الأمية، فضلاً عن ارتباط بعض أشكال النثر بالروح الوثنية التي نبذها الإسلام لاحقاً، مما ساهم في ضياع كثير من النثر الجاهلي، كما أشار إلى ذلك في موضع آخر بقوله: "إن العرب في الصدر الأول من الإسلام تناسوا عامدين أبواباً كثيرة من الأدب الذي كان محفوظاً قبيل الإسلام، صيانة للوحدة الإسلامية من عبث الأهواء"⁵.

من هنا، يمكن فهم سبب شح الدراسات النقدية القديمة لأدب الرسائل تحديدًا، وهو ما يُفسّر التأكيد على أن ظهور هذا الفن اقترن عمليًا بعصر التدوين وازدهار الكتابة.

ويذهب عمر الدسوقي إلى أن الرسائل تُعد من أقدم فنون النثر الفني العربي منذ أن تحوّلت إلى صناعة أدبية، وقد كان لـ عبد الحميد الكاتب دور محوري في إرساء معالمها، خصوصًا مع ازدهارها في العصر العباسي وظهور كوكبة من الكتّاب الكبار الذين جعلوا منها فنًا قائمًا بذاته⁶.

أما في الأندلس، فقد اتخذ مصطلح "الرسالة" دلالة دقيقة ترتبط بالنص النثري المصوغ في نسق فني جميل يُوجّه إلى مخاطب معين⁷، وهي دلالة تقابل لفظ "الكتاب"، الذي كان يُستخدم هناك بنفس المعنى تقريبًا.

ومن هنا، استقر العرف النقدي على أن الرسالة عند الأندلسيين تقابل الخطبة من حيث البنية النثرية، وأنهما معًا يمثلان النثر الفني في مقابل الشعر، سواء من حيث البناء أو من حيث القيمة الأدبية.

2- الرسالة كقناع أجناسي:

لا شك أن عددًا معتبرًا من النصوص النثرية ذات الطابع المعرفي في التراث العربي، والتي كانت تُستبعد قديمًا من الحقل الأدبي بدعوى أنها كُتبت لأغراض نفعية – سواء أكانت سياسية، دينية، أم فلسفية – قد شهدت تحولًا نوعيًا في تموضعها النقدي ضمن الدراسات الحديثة.

ففي السياق الكلاسيكي، غالبًا ما كانت تُصنّف هذه النصوص ضمن الأجناس الفكرية أو الوظيفية الخالصة، وتُعامل بوصفها تعبيرات عقلية أو تعاليم موجّهة، تخدم مرجعيات العقيدة أو الفلسفة أو السياسة، دون أن تُنسب إلى دائرة "الأدب" كما كان يُفهم بمفهومه الجمالي المحض.

لكن هذا التصنيف لم يعد صالحًا في ضوء المقاربات النقدية المعاصرة، التي أعادت النظر في معايير "الأدبية"، ولم تعد تربطها حصراً بالتحليل أو العاطفة، بل أصبحت تقيسها أيضًا بدرجة الكثافة الأسلوبية، والتوتر البلاغي، وحيوية البناء النصي، حتى وإن كان النص ذا محتوى معرفي صرف.

غير أن التحولات التي طرأت على مفهوم "الأدبية" في الدراسات الحديثة – ولا سيما بعد ظهور النقد الثقافي والنقد النوعي – أعادت الاعتبار لكثير من هذه الأعمال، وأدمجتها ضمن المتن الأدبي، لا لأنها فقدت طابعها المعرفي، ولكن لأن الحدود الفاصلة بين الأدب والمعرفة، بين الجمالي والبراغماتي، أصبحت أكثر مرونةً وتسامحًا من ذي قبل.

من هذا المنظور الجديد، بات بالإمكان إعادة قراءة رسائل الجاحظ، وكتابات ابن المقفع، وتآليف المتصوفة، لا بوصفها نصوصًا خطابية وظيفية فحسب، بل باعتبارها نصوصًا هجينة تجمع بين المعرفة والتمثيل الجمالي، وتندرج ضمن ما يُعرف بالنثر الفني أو النثر المؤسس للذوق والوعي.

ولعل الرسائل، بوصفها نموذجًا لهذا التداخل، قد شكّلت في بعض حالاتها قناعًا أجناسيًا يخفي خلفه أجناسًا أخرى. فهي تتيح للكاتب الاحتماء بشكل تواصل غير صدامي، في الوقت الذي يمارس فيه إنتاج خطاب رمزي، تأملي، أو حتى نقدي للسلطة. وهذا ما يجعل من "الرسالة" - في حالات كثيرة - شكلاً إجرائيًا، لا جوهرًا أجناسيًا، يُستعمل لتجنب المواجهة المباشرة مع السلطة.

لقد كانت الرسائل، عند النقاد القدماء، نوعًا تواصليًا وظيفيًا بالدرجة الأولى؛ إذ نُظر إليها على أنها تستجيب لحاجات آنية يفرضها المقام السياسي أو الديني أو الاجتماعي، وليس باعتبارها إنتاجًا أدبيًا ذا خصوصية جمالية. ويتضح ذلك بجلاء في نماذج كرسائل الجاحظ، التي على الرغم من عمقها البلاغي والمعرفي، لم تحظَ بالقراءة الأدبية التي تستحقها في زمنها، نظرًا لأن وظيفتها العملية كانت تغلب على صورتها التعبيرية.

وقد أرجع الدارسون المعاصرون هذا التهميش إلى أن الرسالة كانت تُقيّم وفق مقصدها الظاهري فقط، أي بوصفها وسيلة لنقل مضمون محدد من مرسل إلى متلقٍ، ضمن ما يُعرف في التداوليات بـ "المقام التواصلية"، أي أن عناصر الرسالة (المرسل، المتلقي، الغرض، السياق) كانت هي المحدد الوحيد لطبيعتها، لا بنيتها الأسلوبية أو طاقتها الجمالية.

وقد ذهب بعض النقاد الحداثيين إلى أنّ الرسالة لا تمثل نوعًا خطابيًا مكتمل القواعد، بل هي أشبه بـ "مفهوم فضفاض" لا يتيح للباحث أو المحلل تحديد مرتكزات منهجية صلبة لقراءتها. ومن ثمّ، فإنّ تشغيل معيار النوع في دراسة نصوص الرسائل لا يكون مسعًا إلا بقدر ما يُحيل إلى أجناس أخرى تتقاطع معها وتدخل في تكوين نسيجها النصي. وهو ما تكشفه، على سبيل المثال، رسائل الجاحظ التي تتداخل بنياتها مع خطابات حجاجية من قبيل المناظرة، والمفاخرة، والوصية، ووصف البلدان، وغيرها من الأشكال التعبيرية.⁸ مما يجعلها نصوصًا هجينة بامتياز، لا يمكن اختزالها في مجرد "مكاتبات" أو "خطابات ظرفية"، بل هي نصوص تستبطن رؤى وسجالات فكرية وثقافية عميقة.

هذا التصور الوظيفي البسيط للرسالة هو ما أدى إلى ضياع الكثير من كنوزها، إذ لم يُولها النقد القديم العناية الكافية، فبقي أغلبها حبيس الزمن، ولم يصلنا منها إلا القليل. ولم يبدأ إحياء هذا النوع إلا في ظل المناهج النقدية الحديثة التي أعادت قراءة الرسائل بوصفها مرآة للتحويلات الفكرية والأدبية والمعرفية للعصور التي كُتبت فيها، فأعيد جمعها وتحقيقتها وتحليلها، وبدأ يُنظر إليها كجزء لا يتجزأ من المتن الأدبي العربي.

وهكذا، يظهر جلياً أن إهمال النقاد القدامى للرسائل، رغم ثرائها النوعي والمعرفي، كان نتيجة لانغلاق المفهوم الجنسي للأدب في ذلك السياق، بينما وُفّر النقد المعاصر بيئة خصبة لإعادة بعث هذه النصوص، واكتشاف طاقتها الفنية الكامنة، التي ظلت مستترة تحت قناع المقام التواصلية.

3- الرسالة بين الفكر والأدب:

شكّلت الرسالة بوصفها فناً نثرياً عربياً عريقاً، ملتقى بين مقاصد متعددة، أبرزها التواصل الفكري والإبداع الأسلوبي. ومنذ نشأتها، لم تكن الرسالة مجرد وسيلة تبليغ أو مراسلة، بل غدت فضاء للتعبير عن الآراء، وتبادل الرؤى، وصياغة المواقف، وذلك في قالب لغوي يتراوح بين البساطة والبلاغة، بين الحجاج العقلي والجمالية الأدبية. وقد ساعد هذا الطابع الهجين على جعل الرسالة جنساً مرناً، يتنقل بسلاسة بين فضاءات الفكر والأدب.

ولم يكن هذا المزج بين الأدب والفكر عَرَضاً، بل هو من الخصائص البنوية لهذا الفن، الذي راوح عبر العصور بين الرسائل الإخوانية ذات الطابع الاجتماعي، والرسائل الفلسفية والسياسية والعلمية، التي غلب عليها البعد المعرفي، دون أن تغيب عنها الصياغة الفنية. لذلك يجد الدارس صعوبة في حصر هذا الفن ضمن خانة واحدة: أهو خطاب عقلاني أم جمالي؟ أهو تعبير ذاتي أم معالجة موضوعية؟ والحقيقة أن الرسالة، كجنس نثري، تجسد تداخلاً أصيلاً بين الفكر والأدب، حيث يتضافر المنطقي والبلاغي، ويتشابك الذاتي بالمعرفي.

ومن أبرز من عبّر عن هذا التداخل في التراث العربي، عمرو بن بحر الجاحظ (ت 255هـ)، الذي تُعدّ رسائله نموذجاً متقدماً لهذا المزج بين الفكر والأدب. فقد كتب الجاحظ في موضوعات شتى، امتدت من الجد إلى الهزل، ومن العقيدة إلى السياسة، ومن الطبيعة إلى المجتمع، متوسلاً بأسلوب أدبي يجمع بين السخرية والتحليل والاستطراد، وهو ما منح نثره طابعاً هجيناً يصعب تصنيفه.

وقد تعددت المحاولات الحديثة التي سعت إلى جمع هذه الرسائل وتصنيفها وتحقيقتها، كان من أبرزها:

- مجموعة حسن السندوبي تحت عنوان: "رسائل الجاحظ"، والتي تضمنت إحدى عشرة رسالة.
- مجموعة عبد السلام هارون، الأشمل والأدق، بعنوان "رسائل الجاحظ"، والتي ضمّت سبع عشرة رسالة في جزأين.

- ومجموعة علي أبو ملحم، التي تميّزت بمحاولة تصنيف الرسائل حسب موضوعاتها إلى ثلاثة محاور: الرسائل الأدبية، والرسائل الكلامية، والرسائل السياسية.

ويلاحظ أن أبو ملحم، في تصنيفه، لم يعتمد مفهوم "الأدب" كما نفهمه اليوم، "أي ذلك الفن الجميل الذي يغلب عليه الخيال والعاطفة، ولكن بالمعنى الذي فهمه الجاحظ نفسه في قوله (والأدب إما خُلق وإما

رواية، وقد أطلقوا له اسم المؤدب على العموم (المعلمين)، فالأدب يعني الأخلاق كما يعني رواية العلم أو نقله بين الأجيال بواسطة المؤدب أو المعلم، والكتاب⁹. وبهذا، فإن الأدب في نظر الجاحظ كان يشير إلى التهذيب الخُلقي وتناقل المعارف، لا إلى العمل الفني الخالص.

لكن أبو ملح نفسه لا يلبث أن يتجاوز هذا التحديد، ليعترف بأن الجاحظ لم يكن مجرد ناقل للمعرفة، بل كان "رجل فكر في المقام الأول، ورجل أدب في المقام الثاني، وقد عبّر عن فكره بأسلوب أدبي"¹⁰. مما يعني أن نصوصه تمثل نمطًا كتابيًا مزدوجًا، تتداخل فيه الوظيفة المعرفية مع الأداء الأدبي.

ولعل هذا ما دفعه إلى تأليف كتاب مستقل بعنوان: المناحي الفلسفية عند الجاحظ، سعى فيه إلى تتبع البعد الفكري الذي يضمه نثر الجاحظ، من خلال تحليله لموضوعات المعرفة، وحدود العلم، واليقين والظن، ووسائل الإدراك¹¹، وغيرها من القضايا التي تعبر عن حس فلسفي مبكر يتغلغل في خطاب الجاحظ، لكن بصياغة أدبية متميزة.

ويخلص أبو ملح إلى أنّ المقصود بالمناحي الفلسفية عند الجاحظ هو تلك الاتجاهات الفكرية المنطلقة من ميدان الفلسفة لا من ميدان الأدب، ذلك أنّ الجاحظ لم يكن أديبًا فحسب، بل كان أيضًا مفكرًا اشترأ بنظره إلى ما وراء آفاق الأدب، فأطلّ على ميادين الفلسفة المختلفة: من طبيعيات وهيئات وجماليات وأخلاقيات واجتماعيات، متابعًا ما كان يحدث في ساحتها من مذاهب وجدالات، مدفوعًا بفضوله إلى إبداء آرائه حول مسائلها الأساسية¹². ومن هنا، يغدو من العسير حسم موقع رسائل الجاحظ ضمن خانة أجناسية محدّدة: أهى أدب صرف؟ أم فكر؟ أم فلسفة؟ ويمكن القول إنها كائن هجين، ينهض في منطقة التماس بين هذه الأنواع، ويُعبّر عن نمط نثري عربي أصيل، لا ينفصل فيه الجمالي عن المعرفي.

4- التداخل الأجناسي بين الخطابة والرسالة:

تُعد إشكالية تجنيس الرسائل ضمن الأجناس النثرية من القضايا التي أثارت نقاشًا واسعًا في التراث العربي، خاصةً مع تداخل الأجناس النثرية بشكل عام، والخطابة والرسالة بشكل خاص. فالتداخل بين هذين الجنسين لم يقتصر على الأبعاد السردية فقط، بل شمل جميع الأجناس النثرية التي حظيت باهتمام الأدباء والنقاد، مما أدى إلى تباين واضح في حدودها ومعالمتها، ولا سيما الخطابة والرسالة اللتين كان لهما مكانة سياسية ودينية بارزة.

في هذا السياق، يشير أبو هلال العسكري في كتاب الصناعتين إلى التشابه الكبير بين الرسائل والخطب، مؤكدًا أن كليهما من ضروب النثر غير المقفى ولا الموزون، ويتقاربان كذلك في الأسلوب من حيث سهولة الألفاظ وعذوبتها، وتشابه الفواصل بينهما. ويرى أن الفرق الجوهرى الوحيد بينهما يكمن في وسيلة الإبلاغ؛ فالخطبة تُلقى مشافهة، أما الرسالة فتُدوّن كتابة. بل إنه يذهب إلى أن بإمكان الخطبة أن تتحول

إلى رسالة، والعكس، من دون عناء يُذكر. وهذا التصريح يبرز مدى التقارب بين الجنسين إلى درجة أن الاختلاف بينهما يكاد يقتصر على الفعل الكلامي، أي المشافهة مقابل الكتابة¹³.

ولا يقتصر التداخل على الشكل والأسلوب فحسب، بل يشمل الأغراض التي تحققها كل من الخطابة والرسالة، حيث يشير ابن وهب في هذا السياق إلى ملاحظة دقيقة حول الوظائف الاجتماعية والبلاغية لكل من الخطبة والرسالة، مبيناً أن الخطب تُستعمل في إصلاح ذات البين وتهذئة النزاعات وإخماد نيران الحرب، بينما تتضمن الرسائل أنواعاً من هذه الوظائف نفسها، بالإضافة إلى ما يُستعمل في الرد والاحتجاج على المخالفين من أهل الأطراف¹⁴، مما يدل على التقاطع الوظيفي بين الجنسين، إلى جانب تقاربهما الأسلوبي.

من هذا المنطلق يرى صالح بن رمضان أن أول عناصر التشابه بين مقتضيات مقام الخطابة ومقتضيات مقام الترسل هو عنصر المواجهة، فبعض الرسائل التي يميل فيها الكتاب إلى استخدام أسلوب الخطبة هي تلك التي تقل فيها طبيعة التخاطب الثنائي، إذ تُكتب إلى مخاطب بصيغة الجمع وتُقرأ عليه كما لو كانت خطبة مكتوبة، فيصبح وضع الجمهور عند الاستماع إليها شبيهاً بوضع المخاطبين في الخطبة.

ويُضرب مثلاً على ذلك برسالة الخميس التي كان أحمد بن يوسف يكتبها عن المأمون وتُقرأ على الناس في خراسان، حيث يستخدم قارئ الرسالة جميع أدوات الخطابة من مراعاة مقتضيات الأداء، واستخدام الأساليب الخطابية الملائمة لمخاطبة الجمع¹⁵.

إن هذا التداخل بين الخطابة والرسالة يطرح إشكالات جمة عند محاولة تصنيف الرسائل ضمن الأجناس الأدبية، ويكشف عن مرونة الأجناس النثرية في التراث العربي، حيث تتداخل الوظائف والأساليب والأغراض، مما يجعل من الصعب وضع حدود صارمة بين الجنسين، ويعكس ذلك تطور النثر العربي وقدرته على التكيف مع متطلبات المقام والجمهور.

5- الرسالة ومأزق المصطلح:

يقودنا الطرح السابق إلى إشكال تصنيفي لازال يُحرّك النقد الحديث، ويتمثل في مأزق تجنيس الرسائل القديمة، ومدى ملائمة مصطلح "الأدبية" - بالمفهوم الحديث - لما أُنتج في الثقافة العربية من رسائل سياسية، وديوانية، وإخوانية، وعلمية، وكلامية.

وقد رأى صالح بن رمضان أن اقتصار وصف "الأدبية" على طائفة من الرسائل القديمة (كالإخوانية أو العاطفية) هو نوع من الإقصاء الضمني لبقية الرسائل، رغم أنها لا تقل عنها من حيث الصياغة الجمالية والأسلوبية.¹⁶ وهو ما يجعل هذا التصنيف موضع مساءلة، خاصة إذا استحضرنّا أن مفهوم "الأدب"

نفسه كان مختلفاً عند القدماء، حيث اقترن في الغالب بـ "التهذيب الخُلقي ورواية الأخبار" لا بالفن بمعناه الجمالي.

أما أنيس المقدسي فقد ميّز بين "الرسائل الأدبية" و"الرسائل الديوانية" من حيث الغرض، لا من حيث الأسلوب، مؤكداً أن الصناعة اللفظية لا تختلف كثيراً بينهما، "فأكثرها يسود فيه السجع والبديع، وإنما الاختلاف في الأغراض... وأن الأسلوب النثري في الرسائل الأدبية مماثل لأسلوب النثر الديواني"¹⁷.

من هنا يمكن القول إن مصطلح "الرسائل الأدبية" بالمفهوم الحديث لا يصف نوعاً محدداً، بل يتسع لكل الرسائل التي أنجزت بأسلوب فني وحملت رؤية فكرية، سواء أكانت سياسية، إخوانية، علمية، أم فلسفية. ذلك أن الجاحظ - وهو النموذج الأبرز - قد كتب في كل هذه المجالات، وجعل من "الرسالة" وعاءً معرفياً، بلاغياً، حاجبياً، يُساق مقاصده الفكرية، دون أن يلغي طابعها الجمالي.

وعليه، فإن حصر الأدبية في "الرسائل الأدبية" بمعناها العاطفي أو الإنشائي لا يعكس واقع النثر العربي القديم، ولا ينسجم مع تطوّر مفهوم الأدب والنوع في الدراسات الحديثة.

بل الأجدى أن يُنظر إلى الرسالة بوصفها فضاءً تواصلياً متحركاً بين الأجناس، تتقاطع فيه الوظائف: التعبيرية، الإقناعية، التقريرية، والتخييلية.

6- الرسائل بوصفها قناعاً تأليفاً (من المراسلة إلى التنكر المعرفي):

لقد أدرك كثير من الأدباء أن الرسالة تُمكنهم من ممارسة الكتابة دون الاصطدام المباشر بالرقابة، سواء كانت رقابة سياسية، دينية، أو حتى ذوقية. إذ إن الرسالة بطبيعتها خطاب "موجّه"، يفترض وجود "مرسل إليه"، ما يُضفي عليه طابعاً خصوصياً يحصنه من التأويلات العامة. وفي الواقع، كثير من هذه الرسائل كانت تُنشر وتُذاع وتُتناقل، بل وتُجمع في دواوين، لكنّها حافظت على "قناع الخصوصية" باعتباره حامياً شكلياً للنص.

ويلاحظ أن هذا القناع يسمح بتقنيات بلاغية متعددة:

- الإهداء الظاهري لشخص معين، في حين أن الرسالة موجهة إلى جمهور واسع.
- استخدام نبرة حوارية أو شخصية، تُضفي على الخطاب نوعاً من التواضع أو المسافة من النقد المباشر.

- تمرير مواقف فكرية من خلال المحاور أو التخييل، كما في رسائل الجاحظ

في خضم هذه العناصر تبرز إشكالية تتعلق بطبيعة هذه النصوص التي تُدرج ضمن الرسائل، التي هي في حقيقتها أقرب إلى التأليف المنهجي أو التخييلي المتكامل منها إلى الرسائل، إذ أن عدداً من المؤلفات الكبرى في الأدب العربي صيغت على هيئة رسائل، لا لأنها نتاج علاقة تواصلية واقعية، بل لأن الإطار

الرسائلي كان وسيلة ذكية لتمرير الخطاب، وتجنّب صدام محتمل مع السلطة الدينية أو السياسية أو الذوقية المسيطرة على الفضاء الثقافي.

فقد كان بعض الكُتّاب يُقدّم مؤلّفه الطويل بوصفه "رسالة موجهة إلى فلان"، لا لإثبات واقعة التراسل، بل لتوفير غطاء شرعي وشخصي للنص، يبرّر إخراجهِ للعلن، ويُخفي طبيعته التأليفية الحرة، التي قد تكون محط مساءلة أو رفض.

ولعل من أبرز هذه النصوص:

- "رسالة التوايح والزوايح" لابن شهيد الأندلسي، وهي في بنيتها أقرب إلى مناظرة أدبية-تخيلية مع شعراء الجاهلية، تتضمن نقدًا أدبيًا غير مباشر وسجالًا جماليًا حول مفاهيم الشعر والبلاغة.
- "رسالة الغفران" لأبي العلاء المعري، التي تخفي خلف خطابها الظاهري إلى "ابن القارح" رحلة فكرية تخيلية في الآخرة، تُطرح من خلالها أسئلة عقدية وأدبية كبرى.
- "رسالة التربيع والتدوير" للجاحظ، التي تأخذ شكل محاورة هزلية فيها سخرية اجتماعية وأدبية، لكنها لا تنتمي للرسائل بمعناها التواصلية، بل هي نص فكري يتوسل بالمقامة الرسائية.
- الرسائل الهزلية لابن زيدون، التي تُظهر نزوعًا أسلوبيا نحو التقليد والمحاكاة الساخرة، وتتضمن جملة من عناصر المقامة والفكاهة الأدبية.
- وحتى "الرسالة القشيرية" في التصوف للإمام عبد الكريم القشيري، فهي وإن سُميت رسالة، تُعدّ مؤلفًا تعليميًا منهجيًا يُؤسس لطريقة صوفية ومفاهيمها، ويخاطب جمهورًا عريضًا.
- كل هذه النماذج تُبيّن أن "الرسالة" قد استُعملت أحيانًا بوصفها "قناعًا تأليفيًا"، تُغلّف به الكتب الجريئة أو الخارجة عن النسق الرسمي. وقد شكّلت هذه الاستراتيجية نوعًا من النقية الأدبية، يسمح بتجاوز السلطة الرمزية أو العقائدية، في حين يحافظ ظاهريًا على الانضباط إلى أعراف "الترسل" المألوفة.
- وبذلك، فإن استخدام قالب الرسالة في هذه النصوص لم يكن بريئًا، بل كان خيارًا واعيًا، بلاغيًا، واستراتيجيًا، يُتيح للكاتب هامشًا من الحرية تحت حماية المقام الرسائلي، ويوفّر للنص فرصة للظهور في هيئة "شخصية" أو "خاصة"، بينما هو في الحقيقة مشروع أدبي/فلسفي/تصوفي كامل قائم الذات.

7- الخاتمة:

تكشف دراسة الرسائل في التراث العربي عن إشكالية تصنيفية معقدة، تتعلق بطبيعة هذا الجنس النثري الذي لا يستقر في خانة واحدة، بل يتنقل بين الوظائف المعرفية والجمالية، بين المقامات التوصيلية والأساليب البلاغية، مما يجعله نصًا هجينًا بامتياز. وقد أظهر التحليل أن الرسالة لم تكن مجرد وعاء للتواصل، بل شكّلت قناعًا أجناسيًا وأسلوبًا استراتيجيًا للتعبير عن مواقف فكرية وفلسفية وأدبية.

ومن خلال استحضار نماذج مثل رسائل الجاحظ، يتضح أن هذا الفن تجاوز مفهوم الأدب بالمفهوم الضيق، ليغدو أفقاً منفتحاً على التداخل بين الفكر والأسلوب، بين النقد والتمثيل، وبين البلاغة والموقف. لذلك فإن إعادة الاعتبار للرسائل في ضوء المناهج النقدية الحديثة يسمح لنا بإدماجها في صلب المتن الأدبي العربي، لا بوصفها نصوصاً هامشية، بل باعتبارها نصوصاً تأسيسية تحمل رؤية وموقفاً وسجلاً فكرياً حيويًا.

8- الهوامش:

- ¹ بنظر الرازي، زين الدين بن عبد القادر، تحقق: يوسف الشيخ محمد، مختار الصحاح، 5، ط5، بيروت، (1999م)، المكتبة العصرية - الدار النموذجية، ص 122.
- ² ينظر ابن منظور، لسان العرب، ج11، مادة "رس ل"، ط3، بيروت، (1414هـ)، دار صادر، ص 283.
- ³ التهانوي، محمد علي بن علي، تحقق: دحروج، علي، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، ج1، ط1، بيروت، (1996م)، مكتبة ناشرون، ص 859.
- ⁴ مبارك، زكي، النثر الفني في القرن الرابع، القاهرة، (2012م)، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ص 19.
- ⁵ مبارك، زكي، المرجع السابق، ص 53.
- ⁶ ينظر الدسوقي، عمر، نشأة النثر الحديث وتطوره، القاهرة، (2007م)، دار الفكر العربي، ص 99.
- ⁷ ينظر القيسي، فايز عبد النبي الفلاح، أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، ط1، عمان، (1989م)، دار البشير، ص 83.
- ⁸ - ينظر مشبال، محمد، خطاب الأخلاق والهوية في رسائل الجاحظ (مقاربة بلاغية حجاجية)، ط1، عمان، (2015م)، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، ص 8.
- ⁹ - الجاحظ، عمرو بن بحر، الرسائل الأدبية (رسائل الجاحظ)، ط2، بيروت، (1463هـ)، دار ومكتبة الهلال، ص 5.
- ¹⁰ - الجاحظ، عثمان عمرو بن بحر، المرجع السابق، ص 5.
- ¹¹ - انظر أبو ملح، علي، المناحي الفلسفية عند الجاحظ، ط2، بيروت، (1988م)، دار الطليعة للطباعة، ص 8.
- ¹² - ينظر أبو ملح، علي، المرجع السابق، ص 8-9.
- ¹³ ينظر العسكري، أبو هلال، تحقق: البجاوي، علي محمد، الصناعتين، بيروت، (1986م)، المكتبة العصرية، ص 136.
- ¹⁴ ينظر ابن وهب، تحقق: حفني، محمد، البرهان في وجوه البيان، ط1، القاهرة، (1969م)، مكتبة الشباب، ص 191.
- ¹⁵ ينظر بن رمضان، صالح، الرسائل الأدبية ودورها في تطوير النثر العربي القديم (مشروع قراءة شعرية)، بيروت، (2006م)، دار الفارابي، ص 279-280.
- ¹⁶ بن رمضان، صالح، المرجع السابق، ص 64.
- ¹⁷ المقدسي، أنيس، تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، ط1، بيروت، (1960م)، دار العلم للملايين، ص 323.

9- قائمة المراجع:

- 1- الرازي، زين الدين بن عبد القادر، تحقق: يوسف الشيخ محمد، مختار الصحاح، ط5، بيروت، (1999م)، المكتبة العصرية - الدار النموذجية.
- 2- ابن منظور، لسان العرب، ج11، ط3، بيروت، (1414هـ)، دار صادر.
- 3- التهانوي، محمد علي بن علي، تحقق: دحروج، علي، كشف اصطلاحات الفنون والعلوم، ج1، ط1، بيروت، (1996م)، مكتبة ناشرون.
- 4- مبارك، زكي، النثر الفني في القرن الرابع، القاهرة، (2012م)، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.
- 5- الدسوقي، عمر، نشأة النثر الحديث وتطوره، القاهرة، (2007م)، دار الفكر العربي.
- 6- القيسي، فايز عبد النبي الفلاح، أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، ط1، عمان، (1989م)، دار البشير.
- 7- مشبال، محمد، خطاب الأخلاق والهوية في رسائل الجاحظ (مقاربة بلاغية حجاجية)، ط1، عمان، (2015م)، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع.
- 8- الجاحظ، عثمان عمرو بن بحر، الرسائل الأدبية (رسائل الجاحظ)، ط2، بيروت، (1463هـ)، دار ومكتبة الهلال.
- 9- أبو ملح، علي، المناحي الفلسفية عند الجاحظ، ط2، بيروت، (1988م)، دار الطليعة للطباعة والنشر.
- 10- العسكري، أبو هلال، الصناعتين، ط1، بيروت، (1986م)، المكتبة العصرية.
- 11- ابن وهب، البرهان في وجوه البيان، ط1، القاهرة، (1969م)، مكتبة الشباب.
- 12- بن رمضان، صالح، الرسائل الأدبية ودورها في تطوير النثر العربي القديم (مشروع قراءة شعرية)، بيروت، (2006م)، دار الفارابي.
- 13- المقدسي، أنيس، تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، ط1، بيروت، (1960م)، دار العلم للملايين.